وقفات مع لغة القرآن
(الابتلاء بالغنى والفقر)

أ. د. عادل حسن (*)

الحمد لله رب العالمين الذي يختبر عباده ليميز الخبيث من الطيب فيبتليهم بالسراء ليشكروا وبالضراء ليصبروا، والصلاة والسلام على خير البرية محمد ابن عبد الله ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فالحياة الدنيا ما بين رخاء وشدة ويسر وعسر وسعة وضيق، فمن المحال أن تستقر على حال، والفطِن من يتنبه لهذه الحقيقة حتى يعيش حياته في سعادة حتى وإن ضاق به الحال، وأن يعرف أن هذا من باب الابتلاء سواء بسواء، فمن باب الظن الخاطىء أن يكون من باب تكريم وتفضيل وحب الله للإنسان أن ينشأ في رغد من العيش ميسور الحال لا يشتكي من ضيق الحياة وويلاتها، وذلك بما أفاء الله عليه من نِعَم، وأن من باب إذلاله وإهانته وغضبه عليه أن ينشأ في فقر وشظف من العيش فتراه في الحالة الأولى سعيدًا مسرورًا، أما في الحالة الأخرى فتراه يائسًا حزينًا غير مدرك لتلك الحقيقة، وأن الابتلاء بالغنى ربما يكون أشد من الابتلاء بالفقر، فلم تر الشكر في حال السراء ولا الصبر في حال الضراء، فهذه حقيقة الإنسان الذي لم يختلط الإيمان بعظمه ولحمه فلم يدرك الحكمة من تقدير الله له؛ لذلك فهو بحاجة إلى أن يقف مع نفسه وقفة تصحيح المفاهيم الخاطئة وتصويب الادعاءات التي تأتي دون بينة والعودة إلى طريق الله المستقيم قبل أن تنقطع به حبال الحياة، فربما ما فقده من مال أو جاه أو سلطان وجده في الصحة والعافية وهدوء البال وراحة الضمير، فكل

(*) أستاذ ورئيس قسم أصول اللغة، في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بكفر الشيخ، جامعة الأزهر.

يأخذ حظه كاملًا من الرزق دون نقصان، وهذا الاعتقاد السقيم والخيال المريض الذي ابتلي به غير المؤمن تناولته آيتان من سورة الفجر تأتي مفردة (الابتلاء) في مقدمة كل منهما كعنوان أو تجسيد حي أو صورة ناطقة لكل من مَنَّ الله عليه بالنعم أو سلبت منه، لتؤكد على أن التكريم أو عدمه ليس الهدف؛ بل هو الاختبار والامتحان، وبيان حالة الهدى والضلال والرشد والغي، فمتاع الحياة الدنيا مهما تعددت صوره وأشكاله فهو إلى زوال، فالكرامة لا تأتي من خلاله، وكذلك حجبه ليس فيه دلالة على الذل والإهانة.

الآية الأولى (الابتلاء بالغنى):

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾

(الفجر: ١٥)

تكتمل أركان السعادة في هذه الصورة مع مفردتي ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ و﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ خاصة عندما تقرأ عن دلالتهما المعجمية أو في ضوء السياق القرآني، حيث تجد عالمًا من التفاؤل واطمئنان ورضا القلوب، ولكن مع بيان دلالة الابتلاء أولًا تنجلي الحقائق ويعود التفكير إلى حالته الطبيعية.

١- ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ «بلَوْتُ الرجل بَلْوًا وبلاء وابتليته: اختبرته، وابتلاه اللَّه: امتحنه... والبلاء يكون في الخير والشر، يقال: ابتليته بلاء حسنًا وبلاء سيئًا، واللَّه تعالى يُبْلي العبد بلاء حسنًا ويُبْلِيه بلاء سيئًا»[1].

و«اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعًا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر فصارت المنحة أعظم البلاءين... وقال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾

(الأنبياء: ٣٥)

﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾

(الأنفال: ١٧)»[2].

فهذه حقيقة الابتلاء بصورته التفصيلية دون تجميل أو كذب، ولو أدركها الإنسان وعرفها حق المعرفة لاستقام فكره قبل أن يسبح في عالم من الخيال مع باب الإكرام والتنعيم.

٢- ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ الكرم إذا وُصِف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر، نحو قوله: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾

(النمل: ٤٠)

وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال:

(١) لسان العرب لابن منظور (ب ل و) ١٤/ ٨٣، ٨٤ - دار صادر - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، حققه صفوان عدنان الداودي (ب ل و) ١٤٥، ١٤٦ -دار القلم - الدار الشامية - دمشق - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

هو كريم حتى يظهر ذلك منه، قال بعض العلماء: الكرم كالحرية؛ إلا أن الحرية قد تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة، والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالًا في تجهيز جيش في سبيل الله، وتحمّل حمالة تحقن دماء قوم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)

فإنما كان كذلك لأن الكرم: الأفعال المحمودة، وأكرمها وأشرفها ما يقصد به وجه الله تعالى، فمن قصد ذلك بمحاسن فعله فهو التقي، فإن أكرم الناس أتقاهم، وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم. قال تعالى:

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾

(لقمان: ١٠)

والإكرام والتكريم: أن يوصل إلى الإنسان إكرام، أي: نفع لا يلحقه فيه غضاضة، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئًا كريمًا، أي: شريفًا، قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (الذاريات: ٢٤)»[٣].

٣- ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ «النِّعْمة: الحالة الحسنة، وبناء النِّعمة بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان كالجِلْسَة والرِّكْبَة، والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّم، وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضَّرْبَة والشَّتْمَة، والنِّعْمَةُ للجنس تقال للقليل والكثير، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾

(النحل: ١٨)

(٣) المفردات في غريب القرآن (ك ر م): ٧٠٧.

وَتَنَعَّمَ: تناول ما فيه النِّعْمَة وطيب العيش، يقال: نَعَّمَه تَنْعِيمًا فَتَنَعَّمَ، أي: جعله في نِعْمَة، أي: لين عيش وخَصْب، قال: ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾»[٤].

وعلى ذلك فالسرور في هذه الصورة ينظر إلى الظاهر بعين البصر دون النظر بعين البصيرة إلى بواطن الأمور، فـ «قوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ يقول تعالى ذكره: فأما الإنسان إذا ما امتحنه ربه بالنعم والغنى ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالمال، وأفضل عليه، ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ بما أوسع عليه من فضله ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فيفرح بذلك ويسرّ به، ويقول: ربي أكرمني بهذه الكرامة»[٥].

والخلاصة في هذه الصورة تتجسد في هذا التفكير الذي ينظر إلى الإكرام والتنعيم على أنه من باب الرضا، دون أن يرى أن الابتلاء هو الغاية منه، وأن السعادة الحقيقية تكون بالشكر وآداء ما أوجبه الله من حقوق، وتطهير النفس مما يعلق بها من شح واستئثار، وتعلق القلب بالمُنْعِم لا بالنعم.

الآية الأخرى (الابتلاء بالفقر):

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (الفجر: ١٦).

وفي هذه الصورة تظهر حالة الابتلاء بالشقاء مع ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ فتضيق الحياة

(٤) المفردات في غريب القرآن (ن ع م): ٨١٤، ٨١٥.
(٥) جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) حققه: أحمد محمد شاكر، ٢٤/ ٤١٢ - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

بالإنسان بالرغم من اتساعها، فلا يستطيع التعايش معها، فتجد حالة من التشاؤم واليأس دون النظر إلى حقيقة الابتلاء، وأن هذا قد يكون من باب تطهير النفس من الذنوب والآثام، فظن أن هذا من باب الإهانة والإذلال، فيفقد نعمة الصبر على قضاء الله وقدره.

١- ﴿فَقَدَرَ﴾ «وقَدَرْتُ عليه الشيء: ضيَّقته، كأنما جعلته بقدر، بخلاف ما وصف بغير حساب، قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ (الطلاق: ٧)

أي: ضيِّق عليه، وقال: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ (الروم: ٣٧)

وقال: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، أي: لن نضيّق عليه»[٦].

٢- الرزق يقال للعطاء الجاري تارة، دنيويًّا كان أم أخرويًّا، وللنصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به تارة، يقال: أعطى السلطان رزق الجند، ورُزِقْتُ علمًا، قال:

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ (المنافقون: ١٠)

أي: من المال والجاه والعلم، وكذلك قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣)

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾

(البقرة: ١٧٢)

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

(الواقعة: ٨٢)

أي: وتجعلون نصيبكم من النعمة تحري الكذب، وقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

(الذاريات: ٢٢)

قيل: عني به المطر الذي به حياة الحيوان، وقيل: هو كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾

(المؤمنون: ١٨)

وقيل: تنبيه أن الحظوظ بالمقادير، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾

(الكهف: ١٩)

أي: بطعام يتغذى به، وقوله تعالى:

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾

(ق: ١٠، ١١)

قيل: عني به الأغذية، ويمكن أن يحمل على العموم فيما يؤكل ويلبس ويستعمل، وكل ذلك مما يخرج من الأرضين، وقد قيضه الله بما ينزله من السماء من الماء، وقال في العطاء الأخروي:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

(آل عمران: ١٦٩)

أي: يفيض الله عليهم النعم الأخروية، وكذلك قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم: ٦٢)

---

(٦) المفردات في غريب القرآن (ق د ر): ٦٥٩.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٨)

فهذا محمول على العموم»[٧].

فمع ضيق الرزق يأتي الحكم السريع من هذا الإنسان الذي يتهم فيه ربه بأنه قد أهانه وأذله فيقدح في حكمه، وكان الأجدر به أن يتفكر ويتعرف على الحكمة.

٣- «الهَوَان على وجهين: أحدهما: تذلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة، فيمدح به نحو قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ (الفرقان: ٦٣)

الثاني: أن يكون من جهة متسلّط مستخفّ به فيذم به، وعلى الثاني قوله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾

(الأنعام: ٩٣)»[٨].

فهذه صورة الإنسان الذي ينظر إلى جانب دون أن يحيط علمًا بالجوانب الأخرى، وهذا ما يراه المفسرون من دلالة سياق الآية: «وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ يقول: وأما إذا ما امتحنه ربه بالفقرُّ ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ يقول: فضيَّق عليه رزقه وقتَّره، فلم يكثر ماله، ولم يوسع عليه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ يقول: فيقول ذلك الإنسان: ربي أهانني، يقول: أذلني بالفقر، ولم يشكر الله على ما وهب له من سلامة جوارحه، ورزقه من العافية في جسمه»[٩].

فهذا النوع من البشر يصور الدنيا بصورة سوداوية لا يرى للخير فيها نصيبًا، فلا يشعر بأي أثر من آثار نعم الله عليه؛ فيظن أن الفقر مصيبة لا يجدي معها الصبر، وكارثة لا ينفع معها الرضا؛ لأنه من وجهة نظره انكسار وذل، وعلى ذلك فمن يرى أن الإنعام في الدنيا من الرزق الوفير والحياة الطيبة من تكريم الله له وأن ذلك من باب الرضا، وكما رضي عليه في الدنيا بذلك فسوف يرضى عنه في الآخرة بدخول الجنة، وأن سلب النعم بالتضييق في الرزق والحياة الصعبة المؤلمة من باب الإهانة والإذلال وغضب الله عليه، وبذلك يكون من أهل النار، فهذا وهم وخداع وجهل لا يقر به إلا من فقدوا التفكير الصحيح، وزين لهم الشيطان تلك الأفكار الكاذبة، حتى يحيدوا عن الصراط المستقيم؛ بل الحقيقة تعترف بأن هذا من باب الاختبار، ليعلم الله -عزَّ وجلَّ- حال أهل الرضا وأهل السخط، فربما ينقلب الحال بين عشية وضحاها فيصبح أهل النعيم في شقاء وأهل الشقاء -حسب ظنهم- في نعيم وفي تلك اللحظة أين يذهب الفكر؟ وكيف

(٧) المفردات في غريب القرآن (ر ز ق): ٣٥١.
(٨) المفردات في غريب القرآن (هـ و ن): ٨٤٨، ٨٤٩.
(٩) جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٤/ ٤١٢.

يكون الاتجاه؟ فالكريم عند الله من أدرك الحقائق، والمُهَان من اتبع هواه، فالشكر هو عنوان الباب في الحالة الأولى والصبر عنوانه في الحالة الأخرى، فقد يبتلى العاصي بسعة الرزق والمطيع بخلافه لحكمة أرادها الله -سبحانه وتعالى- وحقيقة الأمر أن الإكرام يكون بالطاعة والإهانة بالمعصية، فليقف كل إنسان عند حدود الأدب مع الخالق العظيم.

والخلاصة أن التعايش مع قضاء الله وقدره في أي حال من الأحوال هو مفتاح السعادة، وأن التفكير بخلاف ذلك مفتاح الشقاء، فالآيتان فيهما توجيه ورد مباشر على أصحاب هذا الظن الخاطىء كما هو واضح عند أهل التفسير: «بأني لم أبتله بالغنى لكرامته، ولم أبتله بالفقر لهوانه، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال، وسعة الرزق وقلته، ولكن الغنى والفقر بتقدير الله جلَّ جلاله وحكمته؛ فقد يوسع على الكافر لا لكرامته، ويضيق على المؤمن لا لهوانه، لكن لأمر اقتضته حكمة الله تعالى، وإنما يكرم المرء بطاعته، ويهينه بمعصيته، وقد يوسع على الإنسان من أصناف المال؛ ليختبره، أيشكر أم يكفر؟! ويضيق عليه؛ ليختبره، أيصبر أم يضجر ويقلق؟!»[١٠].

(١٠) لباب التأويل في معاني التنزيل، (تفسير الخازن) ٧/ ٢٤٥ - دار الفكر - بيروت - لبنان - ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

